المحبة كجوهر النسك في الأرثوذكسية

المتقدم في الكهنة جاورجيوس سخينوس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في منتصف الصوم الكبير، تضع كنيستنا أمامنا شخصية الناسك العظيم وكاتب الكنيسة القديس يوحنا السينائي. إنه مؤلّف كتاب السلم، وهو كتاب نسكي موجّه بشكل رئيسي إلى الرهبان، لكنه يناسب كل مسيحي مجاهد، لأنه يصف الأهواء وكل الفضائل المقابلة لها، حتى نصل في رحلة هذا العالم إلى كمال الفضيلة. بلوغ المحبة، بلوغ اللاهوى.

ولكن، لأننا في كثير من الأحيان نعتبر بعض الأشياء أمراً مفروغاً منه، أود أن أتحدث عن ما هو مفروغ منه.

نحن نتحدث عن ناسك عظيم يأتي إلينا بعد منتصف الصوم الكبير بقليل، ويظهر في كنيستنا. وهو كاتب نسكي، يتكلم عن النسك والتطهّر من الأهواء، وكل هذه الأشياء الجميلة.

لكنْ في كثير من الأحيان، عندما يسمع المسيحيون كلمة "النسك"، تروح أذهانهم نحو عملية عسيرة، يتخيّلون أنها بائسة وغريبة بعض الشيء. عندما يسمع المسيحيون عن "الأهواء" التي يجب أن يتطهروا منها، غالبًا ما يخافون قليلاً، ويشعرون أن شيئًا غير سار قد بدأ عندما يبدأ أحدهم في ممارسة ذلك.

وعلى العكس من ذلك، تقول لنا نصوص الكنيسة في بداية الصوم الكبير: "لنبدأ زمن الصوم مشرقًا".

قديسو الكنيسة، آباء الكنيسة القديسون، يتحدثون عن النسك بفرح. إنهم يتحدثون عن جهاد تطهير أهوائنا بحماس خاص، بحرارة خاصة، وبتناغم خاص.

وقد يتساءل أحدهم: لماذا نحن اليوم، نحن المسيحيين الأقل نسكًا، نرتعد عندما نسمع عن النسك؟ نشعر بعدم الارتياح إلى حد ما. لأن حقيقة عظيمة في إيماننا قد غابت عنا أيها الإخوة.

القديس يوحنا السلّمي يلخص هذه الحقيقة في ثلاث كلمات: "العشق يغلب العشق" أي أن حبًا ما ينتصر عليه حب آخر أعظم. ما الذي يجعلنا مرتبطين بأهوائنا؟ لقد وقعنا في حبها!

في حالتنا الساقطة والعاطفية أصبحنا نحبّ أهواءنا ونحتضنها بقوة. نحن واقعون في حب أهوائنا، نَهَمِنا، زنانا، كبريائنا، أنانا، تفاهتنا، وما إلى ذلك.

وكيف يمكن أن نشفى من هذه؟ أبالمتطلبات القانونية الرسمية فقط؟ مثل: يجب ألا تكون عبداً لمعدتك، يجب ألا تكون شرهاً، يجب ألا تكون زانياً، يجب ألا تكون متفاخراً؟ كل هذه الأمور جيدة، لكن لدي شعور بأنها غير قادرة على ملء شخص ما بالرغبة الجادة في التخلص من هذه الأهواء.

وهنا يأتي القديس يوحنا السلمي الذي يقول لنا، أنه لكي نتوقف عن محبة هذه الأشياء، محبتنا لأهوائنا الأرضية، يجب أن تدخل في قلوبنا محبة أعظم!

فجأة، لا يعود نسكنا يتعلّق بتجنّب بعض الأهواء. ولا يمكن أن نقول إنه اقتداء بالأعمال الصالحة أو الفضائل، بل يتغيّر منظور نسكنا دون أن يكون هذا المنظور للنسك بديهياً.

يمكنني القول إنَّ نسكنا يبدأ بمشابهة جهدِ مَن وقع في الحب للتقرب من الشخص الذي وقع في حبه.

اسمحوا لي أن أقدّم هذا المثال، دون الإساءة إلى أي شخص. يقع رجل ما في حب امرأة. ماذا يفعل؟ يدور حول منزلها، يقصدها ليتحدث معها، وفي الوقت المناسب يكتسب حصارُها معنى أكبر.

هذا هو النسك عندما نمارسه بدافع المحبة. من باب محبة مسيحنا وتشريفه[1].

يكتسب النسك الآن طابعًا ديناميكيًا، هو ليس مجرد الامتناع عن الشر أو فعل الخير، بل هو شيء أكثر من ذلك، إنه جهاد النفس لحصار المسيح ووضعه في داخلنا وتتويجه في قلوبنا.

هذا هو ما يغير شخصية الناس. تخيلْ أن شخصًا ما يقول لك: "افعل هذا! افعل ذلك! لا تفعل هذا! لا تفعل ذلك!" إنه يخلق ردَّ فعل بشكل عفوي، وفي كثير من الأحيان يفعل الناس عكس ما يُطلب منهم أن يفعلوه. ولكن بعد ذلك يأتي إليك شخص محبٍّ ويقول: "إذا كنت تحبني، فلا تخيبْ ظنّي، ولكن من فضلك افعلْ هذا". يتغير مزاجك على الفور. هذه الحقيقة يقدمها لنا القديس يوحنا السلمّي. ربنا يسوع المسيح نفسه يقول هذه الأمور أيضًا: "إن كنتم تحبونني تحفظون وصاياي".

وهكذا يجعل المحبة تجاه شخصه هي التي تنتصر على المحبة الباطلة التي تبعدنا عن طريق وصاياه. لذلك، يجب على المسيحي أن يمارس نسكه على هذا المنوال، يمارس جهاداته الروحية كنظام محبة. تنافسٌ في العشق! لهذا السبب ليس هناك أي تشابه بين نساك كنيستنا والأشخاص غير المألوفين، الغريبين، أو، سامحوني على استخدام هذا التعبير، العانسات القدامى والعازبين القدامى. ليس لدى نساك الكنيسة الأرثوذكسية هذه "الغرابة"! لماذا؟ لأنهم في الأساس أناس محبّون.

إنهم واقعون في الحب وعاشقون. إنهم أناس يحبون، وهذه المحبة تتدفق من قلوبهم نحو المسيح، ويبذلون أنفسهم بشكل متزايد لجهادات أكبر، ونسك أكبر، وحصار أكبر للمسيح. نحن أيضًا، يا إخوتي، فلنحاصر المسيح بهذا اليقين. من الآن فصاعدًا، صومنا وصلواتنا وركوعنا وسجودنا وكل ما نفعله محبة قريبنا، تجنب الإدانة، وكل هذه الأشياء الصالحة، فلنمارسها كنتيجة لمحبتنا للمسيح.

وماذا سيحدث؟ سوف تبدأ من محبة أولية للمسيح من خلال الدخول في مثل هذا الجهاد، وكلما حاولت بهذه العقلية، سوف يتسع قلبك. سوف تصبح أكثر رحابة وتحتضن جميع الناس.

عندها تبدأ بالشعور بالمحبة الأولية للمسيح، وتشعر بها بشكل أعمق وأوسع، فأنت تحتضن كل الناس، وتحتضن الأرض والسماء، وأنت تتحول إلى محبة إلهية، وإنسانًا كونياً.

إنك تصبح إنسانًا يرتفع فوق الحدود المكانية والزمانية التي على هذه الأرض، وتكون قادرًا على احتضان كل شيء، وتصبح تمامًا مثل قديسي كنيستنا، مثل القديس يوحنا السينائي، الذي اكتسب مثل هذه المحبة، هذا العشق للمسيح، وهكذا استطاع أن يتخلى عن محبته الأخرى للأشياء الأرضية.

[1] العبارة في النص الأصلي هي فيلوتيمو φιλότιμο وهي كلمة يونانية مركبة من φιλό أي صديق و τιμο أي شرف أو تشريف. لا يوجد كلمة واحدة تحل محلها إذ إنها في العقلية اليونانية تصف مجموعة من الفضائل معاً (المترجم).

يمكن القول إنك أصبحت مثل القديس الشهيد غريغوريوس الخامس[٢]، الذي تغلّب على محبته للحياة الأرضية بمحبة أخرى، محبة المسيح، محبة الاعتراف بالإيمان بالإنجيل الذي جاء المسيح ليبشر به، وخَتَمَه بدمه. لقد كان لديه مثل هذا العشق للمسيح دون خوف، مما جعله شهيد الإيمان والاعتراف، ولهذا السبب نحتفل اليوم بذكراه.

فلنصلِّ من أجل أن تلتهب قلوبنا جميعًا بهذه المحبة الإلهية، وكل ما نفعله في الكنيسة، فلنفعله بطريقة المحبّين والعاشقين. آمين.

Source: Πρωτ. Γεώργιος Σχοινάς. Η αγάπη ως ουσία της Ασκητικής της Ορθοδοξίας. Ομιλία, Σάββατο 9 Απριλίου 2016, στην αγρυπνία, Ιερό Ναό Ευαγγελιστρίας Πειραιώς. Πνεύματος Κοινωνία. http://pneumatoskoinwnia.blogspot.com/2016/04/blog-post_13.html

[٢] كان الشهيد غريغوريوس الخامس بطريكاً للقسطنطينية، ألقى الأتراك القبض عليه بعد اندلاع الثورة في اليونان ضدهم سنة ١٨٢١، وعرضوا عليه أن ينضمّ إلى الإسلام بمقابل إطلاقه سالماً، فرفض. فعلقوه على بوابة البطريركية التي لم تزل مغلقة إلى اليوم. ثم استقدموا مجموعة من اليهود أنزلوه ومثّلوا بجسده ثم رموه في البحر حيث التقطه بعض المؤمنين ونقلوه إلى روسيا ثم إلى اليونان، حيث توجد رفاته في الكاتدرائية الرئيسية في أثينا. عيده في ١٠ نيسان. (المترجم)